الأدب الشَّعبي بحث في الماهيَّة والأهميَّة

Folk literature is a search for meaning and significance

صلاح الدين باوية [1*]

جامعة محمَّد الصديق بن يحي جيجل (الجزائر)

الملخص:

لاشكَّ أن الاختلاف في الرُّؤى والمشارب المعرفية من جهة، وعدم توحيد المصطلحات النقدية من جهة أخرى، أدَّى إلى وجود ضبابية وغموض فيما يخص تعريف الأدب الشعبي، والثقافة الشعبية بصفة عامة؛ حيث نجد الكثير من المصطلحات المتداولة مثل: الفلكلور، الموروث الشعبي، التراث الشعبي الأدب الشعبي، الأدب العامي...إلى غير ذلك من المصطلحات التي مازالت بحاجة إلى ضبط تام، إذ لا تزال الاختلافات واردة في هذا الحقل المعرفي بين الدَّارسين والباحثين، على الرغم من وجود العديد من المحاولات والجهود في هذا الشأن

الكلمات المفتاحية: الادب الشعبي، الفلكلور، التراث الشعبي، الادب العامي.

Abstract:

There is no doubt that the difference in visions and cognitive approaches on the one hand, and the lack of unification of critical terminology on the other hand, has led to the presence of ambiguity and ambiguity regarding the definition of popular literature, and popular culture in general. We find many terms in circulation such as: folklore, popular heritage, popular heritage, folk literature, colloquial literature... and other terms that still need to be fully controlled, as differences still exist in this field of knowledge between scholars and researchers, despite There are many attempts and efforts in this regard

Keywords: Popular literature, folklore, popular heritage, colloquial literature

* صلاح الدين باوية .

مقدمة:

لاشكَّ أن الاختلاف في الرُّؤى والمشارب المعرفية من جهة، وعدم توحيد المصطلحات النقدية من جهة أخرى، أدَّى إلى وجود ضبابية وغموض فيما يخص تعريف الأدب الشعبي، والثقافة الشعبية بصفة عامة؛ حيث نجد الكثير من المصطلحات المتداولة مثل: الفلكلور، الموروث الشعبي، التراث الشعبي الأدب الشعبي، الأدب العامي...إلى غير ذلك من المصطلحات التي مازالت بحاجة إلى ضبط تام، إذ لا تزال الاختلافات واردة في هذا الحقل المعرفي بين الدَّارسين والباحثين، على الرغم من وجود العديد من المحاولات والجهود في هذا الشأن.

1. اختلافات حول المصطلح وبحث في المفهوم:

للتدليل على هذا الغموض لا يمكن إلا أن نسوق بعض التعريفات الواردة في الأدب الشعبي ،حيث عرفه الباحث "مُحَمَّد المرزوقي" في كتابه الأدب الشعبي بقوله "إن الأدب الشعبي هو ذلك الأدب الذي استعار له الشرقيون من أدب كلمة فلكلور على خلاف صحة إطلاق هذه الكلمة على ما نسميه بالأدب الشعبي بالضبط"[1].

فمن المعروف أن كلمة فلكلور هذه التي استعار منها الشرقيون مفهوما للأدب الشعبي، هي كلمة ومعناها علم، فقد استعمله لأول مرَّة العالم lore وتعني شعب، وFolk مركَّبة من(في مجلة بريطانية سنة 1846 ،والمدلول العام William Thomas البريطاني ويليام تومس لمصطلح فولكلور: "علم الأدب والتقاليد والآداب الشعبية" كما حددته دائرة المعارف الفرنسية(ج17).[2]

من هذا المنطلق فإن مصطلح الأدب الشعبي مستمد من الفولكلور الذي جاء به وليام جون تومز، ولذا يذهب الباحث الجزائري"عبد الحميد بوسماحة إلى أن كلمة (العامي) هي أعرق وأليق، حيث يقول(نجد مصطلح(العامي)أعرق من حيث الاستعمال حيث ميز العرب القدماء المادة الحية التي جمعوها بأنها "الذائعة بين العوام "كما كان الكتاب أمثال الجاحظ ومن عاصره يسمون هذه المادة أدب العامة"[3].

بينما يذهب الباحث "حسين نصار "في تعريفه للأدب الشعبي قائلا: "الأدب الشعبي هو الأدب المجهول المؤلف، العامي اللغة، المتورط جيلا بعد جيل بالرواية الشفوية".[4]

يبدو من هذا التعريف أن هناك محاولة لضبط المصطلح، لكن رغم ذلك تبقى صفة الشعبية هذه لها مدلولات عدة، لاسيما حينما نطلقها على بعض الأماكن للتميز بينها وبين سواها، فحينما نقول مثلا حي شعبي، أو مطعم شعبي أو ما شابه ذلك، فمباشرة يتبادر إلى مفهومنا أن هذا الحي يسكنه الفقراء من الناس والبؤساء، وأن هذا المطعم يرتاده

المعوزون منهم، نخلص من هذا أنه(يعاني مصطلح(الشعبي) في الأصل غموضا والتباسا دلاليا إذا أخذنا بالحسبان تعدد المعاني الذي يتميز به، إن المؤلفين والدارسين الذين يستخدمون مصطلح الأدب الشعبي لا يعطوننا جميعا الدلالة نفسها لكلمة (شعبي)[5] ، ومنه فإن هناك الكثير من الالتباس والخلط في دلالات كلمة الشعبي، وفي هذا يرى(الباحث عبد الملك مرتاض أن إطلاق مصطلح (الشعبي) على كل نتاج أدبي مروي أو مكتوب بلغة عامية، أو مكتوب بلغة فصحى منطقيا غير مستقيم، ويبرر موقفه هذا بأن هذا الإطلاق الشائع ساذج ولا ينبغي له أن يرقى إلى مستوى المصطلح النقدي الدقيق المفهوم"[6].

نلاحظ إذا العديد من وجهات النظر بين النقاد والدارسين، واختلافات جَّمة لاسيما فيما يتعلق بضبط المصطلح، رغم كل هذا لا يستطيع أحد أن ينكر أن الأدب الشعبي "هو أحد جوانب التراث الأساسية الذي يصور بدقة واقع حياة عامة الشعب..نتعرف من خلاله على نفسية أفراد المجتمع، وفكرهم، وأخلاقهم وسلوكاتهم، ومعاناتهم مع القضايا الحياتية، ومقاومتهم للظلم والقهر، والاستغلال،والاستعمار"[7].

من هذا المعطى فقد اهتم به الاستعمار وتم له استيعابه بروية من أجل استخدامه ضد الشعوب المستعمرة.

2. اهتمامات الاستعمار بآداب الدول المستعمرة:

نظرا لكون الأدب الشعبي هو مرآة تعكس نفسية وأخلاق وسلوكيات المجتمعات، فإن دول الاستعمار"التفتت إلى أدب الشعوب وثقافتهم الشعبية لدراسة نفسياتهم، وتركيبتهم الاجتماعية، وانتماءاتهم العرقية إلى غير ذلك مما يفيد تكريس الاحتلال، وخدمة المستعمر في كل الأحوال"[8] ، ولعلَّ من أهم هذه الدول فرنسا، حيث أنشأت"مؤسسة للثقافة الشعبية لخدمة هذا المسعى ما يمثله متحف الإنسان الذي جمعت فيه فرنسا ما أمكن لها الوصول إليه في مختلف الأقطار التي كانت تحتلها"[9] ، ونظرًا لكون الأدب الشَّعبي لعب أدوارًا جدُّ هامة بالجزائر أثناء الثَّورة التَّحريرية، كانت له فرنسا بالمرصاد، حيث(انتبهت السلطات الاستعمارية لذلك، مما حدا بكثير من منظريها في الربع الثاني من القرن التاسع عشر إلى دراسة المجتمع الجزائري وثقافته الشَّعبية"[10].

ولعل من بين أهم جهود المستشرقين الفرنسيين في هذا المضمار"نذكر على سبيل المثال ما قام به المستشرق "الذي جمع عددًا من القصائد الشِّعرية خلال القرن التاسع عشر ونشرها في Sonnekالفرنسي "صونك كتاب يحمل عنوان(ديوان المغرب في أقوال عرب إفريقية والمغرب)، وهي عبارة عن أنطولوجيا قدمت صورة عن تطور الشعر الشعبي المغاربي مركزة على المأثور الشعري الجزائري المتداول في القرن التاسع عشر بمختلف أشكاله، ويعد هذا الديوان المنشور سنة

1904 المصدر الأول الذي حفظ لنا عددًا هامًا من القصائد والمقطوعات التي لا تزال تمثل مدونة صالحة للبحث والدروس"[11].

لذا، وإن قدَّم "صونك" بعمله هذا خدمة جليلة للأدب الشَّعبي عامة، وللشِّعر الشعبي الجزائري بخاصة، إلا أن دراسات هذا الأدب على العموم من طرف مفكري ومنظري الاستدمار، كانت دراسات تحوم حولها الكثير من الشّكوك وعدم النَّزاهة، ذلك كونها من أجل هدف مبيت وهو التَّمكن من الاستيطان والغزو، حتى قيد الله رجالاً خدموا الأدب الشَّعبي في الجزائر خاصة، وفي المغرب العربي عامة من منطلق ديني ووطني يخدم الهوية العربية، فكانوا بحق روادًا في هذا المجال.

3 . رُوَّاد الأدب الشَّعبي في المغرب العربي:

في الحقيقة إذا ألمحنا إلى واقع المغرب العربي على العموم، والجزائر على الخصوص في بدايات القرن العشرين، فإن"واقع الجزائر في الفترة التي ظهرت فيها الدراسات الحديثة عن الأدب الشعبي زاد الإشكالية هذه تعقيدا، ذلك أن الذين اهتموا بالموضوع كانوا في عمومهم من غير الجزائريين، ومنهم لذلك من لم تكن نيته سليمة ومقصده بريئا"[12].

ففي الفترة التي شهدت تواجد الاستدمار في شتى دول المغرب العربي، محاولا بشتى الطرق الهيمنة وطمس الهوية والمعالم الحضارية لشعوب هذه المناطق، "عرفت مختلف أقطار المغرب العربي رجالا انبثقوا من صلب حركة النهضة الفكرية والأدبية العربية في النصف الأول من القرن العشرين، وانبروا يؤسسون للدراسات الشعبية انطلاقا من قناعاتهم الفكرية، ولعبوا دورا مهما في تهيئة مجال البحث في ميدان التراث الشعبي، نذكر منهم على سبيل المثال فقط مُحَمَّد بن أبي شنب في الجزائر، وعثمان الكعَّاك في تونس، ومُحَمَّد الفاسي في المغرب"[13].

هؤلاء وغيرهم في تلك الفترة الحرجة من تواجد الاستدمار، أولو عنايتهم بالتراث الشعبي المغاربي، فخدموا الثقافة الشعبية عامة، وتصدوا لوجهات نظر الاستدمار، انطلاقا من واجبهم الوطني والديني والقومي، فكانت جهودهم تعتبر اللبنة الأولى للتأسيس، في النصف الأول من القرن العشرين، حيث"تأتي عنايتهم بالتراث الشعبي المغاربي المشترك في واجهة اهتماماتهم فمنهم من وضع المصنفات في هذا التراث المشترك مثل مُحَمَّد بن أبي شنب(من الجزائر) الذي ألف كتابا حول الأمثال المغاربية، ومُحَمَّد الفاسي(من المغرب) الذي اعتنى بتاريخ الشعر لملحون ووضع بدوره مصنفا هاما لأشكاله وطبوعه، أما عثمان الكعَّاك(من تونس)فقد أسهم في وضع أسس علم الفولكلور، وقدمه للناس، وحاول أن يطبق تصنيفاته على المواد الشعبية المغاربية، وذلك في كتابه الموسوم"التقاليد والعادات الشعبية"[14].

إن الإشادة بجهود هؤلاء الرُّواد الأعلام أمرٌ لا بدَّ منه، حتى لا يطالهم النِّسيان من جهة، ومن جهة أخرى حتى يلتفت الدَّارسون إلى تمحيص ما خلَّفوه من جليل الأعمال للإقتداء بهم وحذو حذوهم، وبالفعل فقد قيَّد الله رجالاً كانوا خير خلفٍ لخير سلف، واصلوا مسيرتهم، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر(عبد الرحمان قيقة وابنه الطاهر قيقة ومُحَمَّد المرزوقي وعبد الرحمان أيوب(من تونس) وأحمد لمين والتلي بن الشيخ وليلى قريش وعبد المالك مرتاض والعربي دحو(من الجزائر) ومُحَمَّد سعيد القشاط وعلي المصراتي مُحَمَّد برهانة (من ليبيا) وعباس الجراري ومصطفى الشدلي(من المغرب)وقد بذل هؤلاء الأخيرون جهودا لها قيمتها في مجال جمع ودراسة أشكال التعبير الشعبية المغاربية"[15]، علما أن هناك الكثير والكثير من الموروثات الثقافية المشتركة بين شعوب المغرب العربي، مثل الحكايات العجيبة والمغازي، وقصص بني هلال، وأشعار الحكمة المنسوبة إلى الشيخ عبد الرحمان المجذوب، وقصص بطولة الخارجين عن القانون، والأغاني النِّسوية... والكثير من نقاط الاشتراك الأخرى، هذا وقد عرفت مختلف الأمم اهتماما بالغ الأهمية، ومنقطع النظير بآدابها الشعبية.

4 . عناية الأمم بآدابها الشَّعبية:

على الرغم أن الأدب الشَّعبي هو أدبٌ شفويٌّ، وبالتالي مهددٌ بالضياع، لاسيما في ظل هذا العصر الذي يتسم بالثورة المعلوماتية ورواج الوسائط البديلة عصر الحداثة والعولمة، إلا أننا نجد الكثير من الأمم تسارع للاهتمام بآدابها الشعبية، ذلك أن "العصور الحديثة قد أوجبت على المجتمع الإنساني كله الالتفات إلى تراثه الشعبي، لأنه المعبر عن شخصيته أصدق تعبير والحاضر في كل أحوال أية أمة من الأمم ما جعله يؤدي دورا أساسيا في كل الظروف التي مرَّت بها الشعوب"[16].

ولذا نسجل في هذا المنحى سبق فنلندا البلدان الأوروبية في الاهتمام بالآداب والفنون الشعبية، وكذا "جهود مختلف الدول التي اهتمت بتراثها الشعبي، فاستفادت منها أيما استفادة كالاتحاد السوفياتي وانجلترا، والولايات المتحدة"[17].

فالأمركيون قد أدركوا" قيمة الأدب الشعبي ودوره في تطوير مسيرة الأدب القومي الرسمي الأمريكي، بل والأسمى من ذلك خلق شخصية مميزة وموحدة للأمة الأمريكية، وهو هدف استراتيجي سام اطلعت به الدارسة الآنسة كونستانس رورك المتوفاة سنة 1941 "[18].

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل "ظهر كتاب بأوروبا يهتمون بالفنون الشعبية ويجمعون كنوزها مثل وولتر سكوت ببريطانيا، وهردر بألمانيا، وجورج ساند وفيغال بفرنسا"[19] .

أما على صعيد العالم العربي فكانت مصر سبَّاقة لهذا الاهتمام حيث "اهتم المصريون بعد ثورة 23 يوليو تموز بالفنون الشعبية فتألفت لجنة بالخمسينيات من القرن العشرين لجمع التراث الشعبي برئاسة زكريا الحجاوي(...)، كما اهتم قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بالفنون الشعبية، فخصص مادة لذلك يشرف عليها الأستاذ الكبير عبد الحميد يونس"[20]، لكن رغم كل هذه الالتفاتات، إلا أننا نسجل بكل أسف شديد أن هناك نظرة ازدراء سائدة حول الأدب الشعبي.

5 . الأدب الشعبي وموقف الوعي السائد :

من المؤسف حقًّا تسجيل ازدراء كبير للأدب الشَّعبي، من بعض الباحثين والدارسين على حدٍّ سواء، حيث "يذهب البعض إلى وصف الأدب الشعبي بالأدب الهابط، مجردينه من أية قيمة فنية، فهو عندهم مجرد حكايات عجائز وأدب عوام، خال من أية قيمة حقيقية، مما يجعله يشكّل عقبة في سبيل استمرار الفكر وتطور البشرية، والحقيقة أنَّ هذا الطرح خاطئ ولا يعبر إلا عن قصور فكري وضيق في الأفق"[21].

لا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل ولربما تجاوز هذا الازدراء الأدب الشعبي إلى من يدرسه بالجامعات والمعاهد، حيث ينظر إلى أستاذ الأدب الشعبي في كثير من الأحيان على أنه مجرد مهرِّج وحكواتي أو شبيه بالمدَّاح الذي يجوب الأسواق كي يقصَّ السِّير وقصص البطولات والملاحم الشعبية، ولهذا فإن"ما اصطلح على تسميتها بالثقافة الشعبية، وهي ثقافة غير معترف بها، معرفيا أو جماليا، وبرغم أنها ثقافة الأغلبية العظمى للشعب العربي، فقد ظلت مرفوضة ملفوظة من خطابنا الثقافي القومي العام، حتى وقت قريب"[22].

وهذا أمر لمسناه في كثير من الأحيان ليس بجديد، وليس عند دارسي هذه الثقافة الشعبية فقط بل حتى عند النقاد أنفسهم.

إذ"نلمس تنكر كثير من النقاد لهذا الأدب، متأثرين بالنزعة اللغوية، وهذا الإنكار قد تم ذكره ابن خلدون في كتاب"العبر"منذ نيف وخمس مئة عام"[23].

ونتيجة لنظرة الازدراء والاستصغار هذه للأدب الشعبي"كانت النصوص الأدبية الشعبية إلى وقت قريب تعامل على أنها خزعبلات وخرافات لا صدق ورائها، ولا فائدة ترجى منها"[24].

لكن رغم كل ما قدمته النصوص الشعبية من أدوار عبر مسيرة البشرية، ورغم ما تحمله من معاني سامية ومن رصد لخلجات الشعوب النفسية، إلا(إنه من المؤسف أن يعمد كثير من الدارسين إلى التقليل من أهمية الدراسات الشعبية أو إلى هدم هذا الأدب وأشكاله التعبيرية المختلفة، على الرغم من الاعتراف به وبجمالياته وطنيًا وعالميًا"[25].

من المؤكد إذا من كلِّ هذا، (إن الترفع عن دراسة تراثنا الشعبي هو ترفع عن كياننا وإن التنكر له تنكر لهويتنا الثقافية وإهمال لجزء كبير من ثقافتنا الفنية والأدبية"[26].

نستطيع القول إذا رغم كل هذا الجحود والازدراء والاستصغار ومحاولات الانتقاص من الأدب الشعبي، كل هذا "لا يضير الأدب الشعبي أن يحرمه الباحثون من الدراسة، فهو موجود بوجودهم أو حتى موجود قبلهم ويتذوقه جمهوره وينفعل به ويحرص عليه"[27].

لا شك أن أدبًا مثل هذا الأدب تعرَّض لكل أنواع وألوان الإجحاف، وظل صامدا، لدليل على أنه يمتلك خصائص عدَّة مكنته من فرض حضوره من بين الآداب الأخرى.

6 . خصائص الأدب الشعبي:

للأدب الشعبي العديد من الخصائص التي عرف بها فأصبحت علامة بارزة تميزه عن باقي الآداب الأخرى ومن بين هذه الخصائص:

1.6 الأدب الشعبي مجهول المؤلف: لا نستطيع التعرف في كثير من الأحيان عن مؤلف الأدب الشعبي فعلى سبيل المثال لا الحصر نحن نردِّد دائما الكثير من المرويات الشفوية مثل الأمثال والحكم والقصص التي تروي سير الأبطال وغيرها، لكننا في كل الأحوال نعجز عن معرفة مؤلف هذه المرويات، ذلك أنها تتناقل شفهيا من عصر إلى عصر، ومن مكان إلى آخر، دون تدوينها في كثير من الأحيان.

2.6 الأدب الشعبي عامي اللغة: بما أن الأدب الشعبي يتناقله عامة النَّاس من أبناء الشعب على اختلافهم يروى في الأسواق، وفي الأفراح والتَّجمعات الكبرى، كان لزاما أن يتخذ العامية لغة له وهذا حتى يفهمه الجميع يتغلغل في وجدانهم ويصور أحاسيسهم، ومن ذاك يتناقلونه بحب وشغف.

3.6 الأدب الشعبي يروى شفويا: من المتعارف عليه عند العامة أن "الثقافة الشعبية ثقافة شفهية، ويصعب على الكثير تدوين كل ما تنتجه المخيلة الشعبية من أشعار وحكم وأمثال ارتبطت ارتباطا وثيقا بحياة الجماعة "[28].

ولذا يعتمد حاملوا الأدب الشعبي على الشفوية في نقله إلى المتلقين، وهذا كون أن هذا الأدب يرتبط بالتجمهر الشعبي في كثير من الأوقات، مثل التويزة، والوعدات، والأعراس الجماعية والأفراح، ويجسد ظاهرة الشفوية أحسن تمثيل القوَّال في الأعراس، والمدَّاح في الأسواق الشَّعبية الذي يروي السِّير والمغازي.

4.6 الأدب الشعبي يتعلق بالشعب، يعكس ضميره الجمعي:الأدب الشعبي مثلما رأينا يصور بدقة حياة عامة الشعب، ولذا فهو يعكس بصورة جماعية ضمير وأحاسيس هذا الشعب أو ذاك، ومن خلاله أمكننا التعرف على نفسية أفراده وسلوكاتهم، ولذا نجد توظيف الضمير الجمعي (نا)والمخاطب(كم) بكثرة في النصوص الشعبية، وهذا دلالة على الروح الشعبية الجماعية.

هذا وقد كان ولا يزال الأدب الشعبي أدبا ملتزما بقضايا الشعوب يُؤرِّخ لأفراحها وأتراحها في السَّراء والضراء.

7 . وظائف الأدب الشَّعبي:

أضف إلى العديد من الخصائص التي يتميز بها الأدب الشعبي، نجده يتميز أيضا ببعض الوظائف والتي أهمها:

1.7 الوظيفة السِّياسية:

لاشك أن في سِيَّر أبطال العرب المسلمين أمثال عنترة، وسيف ذي يزن، وعلي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، وقص بطولاتهم، ومغازيهم الكثير من العبرة للشعوب المضطهدة، وبالتالي كوّنت هذه السِيَّر الوعي الشعبي الذي ارتبط بفك عوامل الاستبداد والثورة على تكالب القوى الخارجية، هذا ولعل طمن أهم الآثار الأدبية الشعبية التي حاولت تحقيق هذه الوظيفة كتاب كليلة ودمنة لعبد الله بن المقفع الذي كان في ظاهره كتاب قصص على لسان الحيوان حكيت لأجل التسلية، لأن النقد السياسي في زمن ابن المقفع كان محظورا، فلجأ كاتبه إلى التصريح بآرائه السياسية، وثار على النظام الحاكم بطريقته الرَّمزية على لسان الحيوانات"[29].

2.7 الوظيفة الجمالية والترفيهية:

تتمثل الوظيفة الجمالية في القصة الشعبية أحسن تمثيل، وهذا لما تتمتع به هذه القصة من جماليات الوصف والتخيل، واستحضار البطولات والخوارق وجميع عناصر الإبهار لإلقاء الدهشة في المتلقي، فمثل هذه القصص الشعبية تؤدي أدورا جمة تربوية وتثقيفية وترفيهية، "ولا يخفى أيضا ما للنكتة الشعبية من أهمية في التنفيس من الاحتقان الذي قد

يعانيه المواطن، جراء المشاكل الاجتماعية أو المادية، فتكون تلك الضحكات الناتجة عن تداول النكات الشعبية تخفيفا من العناء الذي يلاقيه الناس في حياتهم اليومية، كما قد يكون فيها نقد خفي مبطن سياسي واجتماعي..."[30].

3.7 الوظيفة التربوية:

تتجلى هذه الوظيفة في الحكايات والقصص والأمثال والألغاز الموجهة للصغار والكبار على حد سواء، ومنه يصرُّ الأدب الشَّعبي دائما على انتصار الخير والقيم النبيلة على الشَّر والقيم الفاسدة، كما نجده يعتني مع بالغ الأهمية بالطفل، وهذا"لا يعني أن الأدب الشعبي موجه للطفل فحسب، بل إنه يقدم خلاصة تجارب الحياة عن طريق الحكاية التعليمية، أو الرمزية مثلا، وعن طريق الأمثال الشعبية أيضا، هذه الأشكال التي يتعلم منها الإنسان الكثير" [31]، وإلى جانب الوظيفة التربوية، هناك أيضا الوظيفة التاريخية والعلمية.

4.7 الوظيفة التعليمية التاريخية:

النص الشعبي يحتوي على قدر كبير من صفة التعليمية، وهذا ما يتجلى بشكل دقيق في توظيفه الرموز والأساطير بشكل جلي، إذ "تساعد أشكال التعبير الشعبي الباحثين في التعرف على خصائص المجتمع وسماته النفسية ومستواه الإدراكي وحركيته الاجتماعية...لأن هذه النصوص تحمل خلجات الشعوب النفسية واهتماماتهم الروحية وتطلعاتهم وآمالهم، ومشاكلهم وآلامهم، ومدى تفاعلهم مع حوادث التاريخ..."[32].

أما من حيث الوظيفة التاريخية، فقد أرَّخ النص الشعبي، لكثير من حوادث وأحداث الشعوب، وهذا ما اضطلعت به الأغنية ،والقصيدة الشعبية، ففي الجزائر نجدهما قد واكبا المقاومات الشعبية، والثورة التحريرية، بل إننا نعثر على قصيدة للشاعر "لخضر بن خلوف "التي تعود إلى سنة (1515م)يؤرخ فيها لهجوم الأسطول الإسباني على الغرب الجزائر.

8. أهمية الأدب الشعبي:

ما من شك أن للأدب الشعبي أهميَّة كبرى في حياة الشعوب، فهو المؤرّخ لأحداثها، وترجمان لسانها، وهو عنوان أصالتها وعراقتها، ودليل تواجدها واستمرارها عبر التاريخ، والأدب الشعبي هو الأرضية الفعلية للأصالة القومية، وهو التراث الذي يحافظ على هوية الأمة وتماسكها، وإن وجود الكثير من المؤلفات التي تضمنت مواد تراثية شعبية منذ القديم إلى يومنا هذا، الدليل على مدى أهمية هذا الأدب، فقد(ظهرت مؤلفات كثيرة تضمنت مواد تراثية شعبية منها: ما قدمه الجاحظ(ت255 هـ)في كتابه البيان والتبيين و(الحيوان)من مرويات عامية وشعبية وما ألفه ابن قتيبة(ت 276 هـ) من كتب تراثية شعبية مثل(الحكاية والمحكي)وكذلك ما كتبه النويري(ت 735 هـ)من خلال كتابه(نهاية الأرب في فنون

الأدب)[33] ، هذا إلى جانب الكثيرين ممن اهتموا بالشعر الشعبي على وجه الخصوص وعلى رأسهم أبو الفرج الأصفهاني الذي أشار إلى بعض أشكال منه في كتابه الأغاني، أضف إلى ذلك العلاَّمة ابن خلدون الذي أورد في مقدمته الكثير من أشعار الهلاليين، وبعض من زجل الأندلسيين، بل إن ابن خلدون أتى بمفهوم ناضج حول الشعر الشعبي، وفي الأندلس اهتم صفي الدين الحلّي بالشعر الشعبي في كتابه "العاطل الحالي والمرخَّص الغالي"، كما نجد الوشَّاح ابن سناء الملك الذي اهتم بالموشحات في كتابه "دار الطراز"، أما في العصر الحديث فالذين اهتموا بالأدب الشعبي فهم كثر والقائمة تطول بل نجد بعض شعراء الفصيح، ممن دأبوا على تضمين بعض قصائدهم بمأثورات شعبية، من أجل منحها عمقا تاريخيا، وبعدا حضاريا، ومن هؤلاء بدر شاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي، وأمل دنقل.

من كلِّ هذا" لا يخفى طبعا على أي دارس الأهمية الكبرى التي تكتسيها نصوص الأدب الشعبي والثقافة الشعبية عموما، بالإضافة إلى القيم الفنية التي يتوفر عليها هذا النص"[34].

ومنه، فإن(الأدب الشعبي بكل أشكاله ثروة كبيرة لا يمكن تجاهلها، به تعرف قيمة الشعوب)[35] ، بل يكاد يجمع الكثيرون قد "أصبح من الحقائق المؤكّدة بأنَّه لا يوجد أدب في العالم إلاَّ وقد تأثَّر بالأدب الشَّعبي الذي أفرزته المجتمعات المختلفة، فالكلّ تأثّر بالكلّ، والكلّ أفرز عطاءه الأدبي الإنساني العظيم"[36].بل الأكثر من هذا "إنه لا يمكن أن نتصوّر حياة دون الأدب الشعبي، ففي داخل كلّ منّا شدّ وجذب بين السلوك الشعبي والسلوك غير الشعبي، فالإنسان يخضع دائما في تفكيره وشعوره لسلطة المجتمع والثقافة "[37].

نظرا لهذه الأهمية التي يكتسيها الأدب الشعبي، ننوه بأن الدراسات التي تقام حوله هي جدُّ مهمة، إذ وجب الاهتمام به أكثر فأكثر.

9. اهتمام الجزائر بالأدب الشعبي:

أمكننا في الأخير أن نسجل بارتياح كبير الأهمية التي توليها الجزائر في الآونة الأخيرة للأدب الشعبي، بحيث "التفتت أخيرا إلى التراث بكل أنواعه، ولئن بدأ الاهتمام أكاديميا وعلميا منذ سنوات بالجامعات، من حيث إنشاء مخابر الموروث الشعبي الشفوي، كما هو الحال بأطلس الثقافة الشعبية بجامعة الجزائر الذي يرأسه الدكتور الباحث عبد الحميد بورايو، وبجانبه العديد من الأساتذة الباحثين في جامعات جزائرية مختلفة، "...كما أن رابطة الأدب الشعبي التي تأسست منذ سنوات قليلة تمكنت من عقد البعض من الندوات، وإصدار العديد من الكتب"[38]،كما يجب أن لا ننسى تظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، هذه التظاهرة الضَّخمة التي اهتمت بكامل مواد وعناصر التَّراث الثَّقافي، فأمكننا من خلالها

التعرَّف على كثير من الباحثين الشَّباب المهتمين بالأدب الشَّعبي أمثال الأساتذة الأفاضل: أحمد قنشوبة، وأحمد زقب، وعثماني بولرباح، ورئيس رابطة الأدب الشَّعبي الشَّاعر توفيق ومان، والشَّاعر الإعلامي عبد الكريم قذيفة... والقائمة تطول هؤلاء الشَّباب وغيرهم انبروا حاملين المشعل لمواصلة الدرب، أضف إلى كل هذا ما يُسمَّى بشهر التراث الذي سطرته وزارة الثقافة في كل سنة، والذي حددته بشهر ماي حيث تقيم فيه كل مديريات الثقافة بالوطن ندوات، ومعارض، وزيارات، لمواقع"[39]، ليبقى من كلِّ هذا "الأدب الشَّعبي مؤسَّسة ثقافية متجدِّدة، تتجاوز الحدود السياسية والإقليمية، وهو أقدر على التواصل والتبليغ من الأدب الرَّسمي العام"[40].

ختاما سيظل الأدب الشَّعبي مرآة صادقة تعكس تاريخ المجتمعات، رغم كل ما يقال حوله هنا وهناك من دعاوي الإنكار والاحتقار، فهو أولاً وأخيرًا يمثل هويَّة وأصالة وتاريخ الشُّعوب وانتماءاتها الحضارية.

4. الهوامش والإحالات:

[1] مُحَمَّد المرزوقي، الأدب الشعبي، نقلا عن بولرباح عثماني، دراسات نقدية في الأدب الشعبي، الرابطة الوطنية للأدب الشعبي لاتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط.1 ، 2009 ، ص18.

[2] عثمان سعدي، مقدمة لكتاب مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، التراث الشعبي والشعر الملحون في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، ط.1 ،2010 ،ص05 .

[3] عبد الحميد بوسماحة، "إشكالية المصطلح"، مقالة ضمن كتاب الموروث الشعبي وقضايا الوطن، الرابطة الولائية للفكر والإبداع بولاية الوادي، مطبعة مزوار، الوادي، الجزائر، د.ط،2006، ص18 .

[4] بولرباح عثماني، دراسات نقدية في الأدب الشعبي، ص18 .

[5] عبد الحميد بوسماحة، إشكالية المصطلح، ص18 ،19 .

[6] المرجع نفسه، ص19 ،20 .

[7] بشير خلف، وقفات فكرية حوار مع الذات..وخزٌ للآخر(مقالات)، دار الهدى عين مليلة ، الجزائر، د.ط،2009 ،ص 104،105

[8] العربي دحو، جمع وتصنيف وتقديم، أشعار جزائرية من الديوان الشعبي العام، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، د.ط،2006، ص03

[9] المرجع نفسه، ص03 .

[10] عبد الكريم قذيفة، من فحول الشِّعر الشَّعبي الجزائري أنطولوجيا الشعر الملحون بمنطقة الحضنة– الشعراء الرواد– منشورات أرتيستيك، القبة، الجزائر، ط.2 ،2007، ص23 .

[11] عبد الحميد بورايو، تقديم كتاب، توفيق ومان، انطولوجيا الصوت المكنون في الشعر الملحون،فيسيرا للنشر، الجزائر، ط.2 ،2010 ،ص10 .

[12] العربي دحو، "القصيدة الشعبية في الجزائر النشأة والتشكيل"، مقالة ضمن كتاب الأصوات النسوية في القصيدة الشعبية الجزائرية، جمع وتصفيف توفيق ومان، تحقيق وإشراف نبيلة سنجاق، منشورات رابطة الأدب الشعبي، اتحاد الكتاب الجزائريين، د.ط، د.ت، ص07 .

[13] عبد الحميد بورايو، في الثقافة الشعبية الجزائرية التاريخ والقضايا والتجليات(مقالات وحوارات)، فيسيرا للنشر، الجزائر، د.ط، 2011 ، ص 94 .

[14] المرجع نفسه، ص95 .

[15] المرجع نفسه، ص95،96 .

[16] العربي دحو، جمع وتصنيف وتقديم، أشعار جزائرية من الديوان الشعبي العام، ص03 .

[17] المرجع نفسه، ص03،04 .

[18] عبد العزيز الشويط، دور النشيد الشعبي الجزائري في معركة التحرير الكبرى دراسة في الأهداف والمرامي، دار أمواج للنشر، سكيكدة، الجزائر، ط.1 ، نوفمبر2005 ،ص21 .

[19] عثمان سعدي، مقدمة لكتاب مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، التراث الشعبي والشعر الملحون في الجزائر، ص06

[20] المرجع نفسه، ص08 .

[21] علي بولنوار، الشعر الشعبي الجزائري في منطقة بوسعادة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط،2010 ص03

[22] مُحَمَّد رجب النجار، الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، د.ط،2006 ،ص07

[23] بولرباح عثماني، دراسات نقدية في الأدب الشعبي، ص16 .

[24] أحمد قنشوبة، الشعر الغض اقترابات من عالم الشعر الشعبي، منشورات رابطة الأدب الشعبي اتحاد الكتاب الجزائريين،دار الرائد للكتاب، د.ط، د.ت،ص50.

[25] بولرباح عثماني، دراسات نقدية في الأدب الشعبي، ص17 .

[26] أحمد الأمين، صور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري، دار الحكمة، الجزائر،د.ط،2007 ، ص08 ،09.

[27] بولرباح عثماني، دراسات نقدية في الأدب الشعبي، ص16.

[28] توفيق ومان، في الشعر الشعبي المعاصر، منشورات الرابطة الوطنية للأدب الشعبي، لاتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، د.ط،د.ت،ص05.

[29] أحمد قنشوبة، الشعر الغض اقترابات من عالم الشعر الشعبي، ص51 .

[30] المرجع نفسه، ص56 .

[31] المرجع نفسه، ص53 .

[32] المرجع نفسه، ص54 .

[33] بولرباح عثماني، دراسات نقدية في الأدب الشعبي، ص22 .

[34] أحمد قنشوبة، الشعر الغض اقترابات من عالم الشعر الشعبي،ص49 .

[35] توفيق ومان، انطولوجيا الصوت المكنون في الشعر الملحون،ص15 .

[36] علي بولنوار، الشعر الشعبي الجزائري في منطقة بوسعادة، ص03 .

[37] المرجع نفسه، ص04.

[38] بشير خلف، وقفات فكرية حوار مع الذات..وخزٌ للآخر(مقالات)، ص122 .

[39] المرجع نفسه، ص122.

[40] عبد القادر شرشار، النَّص الشِّعري الشَّعبي مؤسسة ثقافية متجددة، مجلة النور،ع172، نقلا عن عبد الكريم قذيفة، من فحول الشِّعر الشَّعبي الجزائري أنطولوجيا الشعر الملحون بمنطقةالحضنة"الشعراء الرُّواد"ص26 .